إعجاز القرآن

الإعجاز: إثبات العجز للغير.

يقال: أعجز القرآن البشر، أي: أثبتَ عَجْزَهم عن أن يأتوا بمثله.

ولا يتحقق الإعجاز إلا بأمور ثلاثة:

١ ـ التحدي، وهو طلب المنازلة والمعارضة.

٢ ـ وجود المقتضي الذي يدفع المتحدَّى إلى المنازلة.

٣ ـ عدم وجود مانع من المباراة.

فالمصارع إذا ادعى البطولة، وأنكر عليه مصارع آخر، فتحداه الأول، فلم يستطع الثاني منازلته، كان الأول قد أثبت عجز الثاني، وذلك:

لوجود التحدي من الأول،

ولحرص الثاني على إبطال دعوى الأول،

ولانعدام المرض أو العذر المانع من المباراة.

❊ ❊ ❊

تحقق شروط الإعجاز في القرآن الكريم

لبيان صحة إعجاز القرآن الكريم، لا بد أن نعرض كل شرط من شروط الإعجاز المتقدمة على القرآن، ليتضح لنا إعجازه بجلاء، وذلك على النحو الآتي:

١ ـ التحدي، وهو طلب المنازلة والمعارَضة:

فالقرآن الكريم تحدّى العرب، وأثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله ـ وهم أرباب الفصاحة والبيان شعراً ونثراً ـ، قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣ ـ ٣٤].

وتحدَّاهم بأن يأتوا بعشر سوَر مثله، قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤].

وتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

فلما عجزوا تحدى الإنس والجن بلهجة واخزة وتهكم لاذع:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وهذا التحدي لم يقف عند زمن الرسول ﷺ فحسب، بل هو ماضٍ إلى يوم القيامة.

٢ ـ وجود المقتضي الذي يدفع المتحدَّى إلى المنازلة:

فالرسول ﷺ ادعى أنه رسول الله، وجاءهم بكتاب الله (القرآن الكريم)، يسَفِّه عباداتهم، ويسخر من عقولهم، فحرصوا على رده بأن يأتوا بمثله أو ببعضه، ليدحضوا حجته، فلا يقال أنه من الله.

٣ ـ عدم وجود مانع من المباراة:

فالمانع الذي يمنع العرب من المعارضة غير موجود، وذلك متضح في جوانب عدة هي:

أ ـ جانب اللغة: فالعرب كانوا قادة الفصاحة والبيان بشعرهم ونثرهم، وكان القرآن بلسانهم.

ب ـ جانب المعنى: فقد كانوا على بصر وخبرة وتجارب وذكاء، كما تشير إلى ذلك خطبهم وأشعارهم ومنافراتهم وآثارهم.

جـ ـ جانب الزمن: فالقرآن لم ينزل جملة واحدة، بل نزل خلال ثلاث وعشرين سنة، ليتسع مجال المعارضة[1].

والعرب يعلمون أن معارضة القرآن بنظم سورة مثله أبلغ في تكذيب محمد ﷺ وأسرع في تفريق أتباعه، لكنهم عجزوا عن ذلك، مع أنهم مصاقع الخُطباء، وأساطين البلاغة في تلك الفترة الطويلة، فسلكوا سبيلاً آخر، وهو بذل النفوس، والمقارعة

---

(١) علم أصول الفقه ـ عبدالوهاب خلاّف ص٢٥ ـ ٢٧ ومحاضرات في أصول الفقه للشيخ بدر المتولي عبدالباسط ج١ ص١٢٩.

بالسيوف، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال بالحرب الضارية[1].

وتحدّي القرآن الكريم ثابتٌ قديماً وحديثاً ومستقبلاً للخصوم ذوي الأفكار الخبيثة الباطلة، الذين يطعنون به ويشككون فيه. إن هؤلاء يمثلون في موقفهم ذلك موقف المتخاذِل المنهزم، الذي لا حَوْل له ولا قوة. وما ذلك إلا اعتراف كامل بأن القرآن الكريم كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فما على هؤلاء إلا الانقياد والامتثال، لما فيه من الأوامر والنواهي، والإيمان بما جاءت به السنّة النبوية المطهرة.

❊ ❊ ❊

وجوه إعجاز القرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب تشريع ودستور للناس، تُبنى به حياة عزيزة كريمة، يريد أن تعمر بها الأرض.

ولم يكن مقصده الأصلي أن يؤصّل نظريات علمية، أو أن يقص علينا أنباء الأولين، أو أن يكون صورة أدبية فريدة في الأسلوب، لكنه ذكر آيات الله في الخلق بذلك الأسلوب الرفيع، ليعلمهم أنه كلام إلهي معجِز في حد ذاته، وليؤكد الإيمان به واتخاذ العِبَر من القصص.

والقرآن الكريم معجز من وجوه متعددة[2] هي:

الوجه الأول: فصاحة ألفاظه، وبلاغة عباراته، وعجيب نظمه.

جميع ألفاظ القرآن الكريم فصيحة، لا تنبو عن السمع، وعباراته مطابقة لمقتضى الحال في أرفع مستوى من البلاغة، يحس بطلاوته ورقته وروعته مَن له أدنى ذوق باللغة العربية، وهذا واضح في تشبيهاته واستعاراته ومجازاته ومختلف أساليبه.

وهو غريب على العرب في أسلوبه، إذ ليس لهم كلام مشتمل على هذه الفصاحة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحِكَم الكثيرة،

---

(١) الإتقان ج٢ ص١١٧ وشرح المقاصد ج٢ ص١٨٣ وشرح المواقف ص٥٥٧ والدواني ج٢ ص٢٧٨ والنبأ العظيم ص٨٥.

(٢) انظر: شرح المقاصد ج٢ ص١٨٣ ـ ١٨٧ وشرح المواقف ص٥٥٨ ومناهل العرفان ج٢ ص٢٢٨ وأعلام النبوة ص٥٧ وما بعدها، وعلم أصول الفقه ـ خلاّف ص٢٨.

والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة.

ثم إنه عجيبٌ نظمه، وبديعٌ تأليفه، لا يتفاوت، ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها، مع ذكر القصص والمواعظ وغيرها.

فلا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظَهيراً[(١)].

والذي يتتبع تاريخ اللغات يجد أنها متطورة تدريجياً، أما اللغة العربية فلم يحدث لها تطور تدريجي حين جاء القرآن، بل بعض ما يشبه الانفجار المباغت، فطفر باللغة من مرحلة اللهجة الجاهلية إلى لغة منظمة فنياً، مع أنه لم يستعمل مطلقاً ألفاظاً أجنبية عن لهجة الحجاز. فكأنه استحضر ثروته اللفظية الخاصة، وأنشأها بطريقة غريبة، فأحدث انقلاباً هائلاً في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير، فخلق من الوجهتين الأدبية واللغوية فصلاً تاماً بين اللغة الجاهلية واللغة الإسلامية[(٢)].

قال الشيخ المودودي الهِنْدي:

(إذا قرأت اللغة العربية، ودرست أدبها، ظهر لك من دون أدنى ارتياب، أنه لا يمكن أن تكون في الدنيا لغة أنسب من هذه اللغة، لأداء الأفكار العالية، والإفصاح عن أدق معاني العلم الإلهي، والتأثير في القلوب، فبالجمل الصغيرة من هذه اللغة، تؤدي الموضوعات المهمة، وتكون قوية التأثير في القلوب. إلى مثل هذه اللغة كانت تحتاج معاني القرآن الكريم، فمن حكمة الله البالغة، ورحمته الشاملة بعباده إذن، أن اختار أرض العرب على غيرها للنبوة العالمية)[(٣)].

❋ ❋ ❋

---

(١) انظر في هذا بحثاً مستفيضاً في: الإتقان ج٢ ص١١٦ ـ ١٢٥ وقد جاء بآراء كثيرة للجاحظ والنَّظَّام والرُّمَّاني والخَطَّابي والزَّمْلَكاني وابن عطية والرازي والقاضي عِيَاض والمَرَّاكُشي والزَّرْكَشي والجُرْجَاني والسَّكاكي والتوحيدي والأصْبَهاني وغيرهم.
وقد طبعت بعض هذه الكتب مثل: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرُّمَّاني والخَطَّابي والجُرْجَاني وكتابان للزملكاني هما: البرهان الكاشف، والتبيان، حققهما د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحَدِيثي. والشِّفَا للقاضي عِيَاض، والبرهان للزَّرْكَشي.. كما ذكر الدكتور عمر ملا حُوَيْش في كتابه (تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية) آراء بعض هؤلاء محللاً كتبهم في الإعجاز. وانظر إعجاز القرآن للرافعي، والمصادر السابقة، والنبأ العظيم ص٨٠ وما بعدها.

(٢) الظاهرة القرآنية ص٢٣٢ ـ ٢٣٤.

(٣) مباديء الإسلام للأستاذ أبي الأعلى المودودي ص٤٧.

أسلوب القرآن الكريم

أسلوب القرآن[1] هو الطريقة التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، وقد جاء القرآن الكريم كتاباً عربياً جارياً على مألوف العرب، فمن حروفهم تألفت كلماته، ومن كلماتهم تألفت تراكيبه، وعلى قواعدهم العامة في صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه. ومع ذلك فقد أعجزهم بأسلوبه الفذ.

ومثل البيان اللغوي في أية لغة مثل أي صناعة من الصناعات.

فالخياطون يختلفون فيما بينهم فمنهم مَن هو خامل أو ماهر، أو ضعيف أو بارع. وهذا الاختلاف لم يكن نتيجة الاختلاف في مواد الثياب المخيطة أو الآلات والأدوات العامة المستخدمة في الخياطة، بل جاء الاختلاف من جهة الطريقة الخاصة التي اتبعت في اختيار هذه المواد وتأليفها، واستخدام قواعد هذه الصناعة في شكلها وهندستها.

وإذا نظرت في مفردات اللغة العربية تجد:

إن منها ما هو متآلف في حروفه ومتنافر، وواضح مستأنس، وخفي غريب، ورقيق خفيف على الأسماع، وثقيل كريه، وموافق لقياس اللغة ومخالف له.

ومن تلك المفردات ما هو عام أو خاص، أو مطلق أو مقيَّد، أو مجمل أو مبين، أو معرّف أو منكر، أو ظاهر أو مضمَر، أو حقيقة أو مجاز.

وكذلك التراكيب العربية، منها ما هو حقيقة أو مجاز، أو متآلف الكلمات أو متنافرها، أو واضح المعاني أو معقدها.

وليس شيء من هذه المتنوعات بالذي يحسن استعماله إطلاقاً، ولا شيء منها بالذي يسوء استعماله إطلاقاً، أي في جميع الأحوال والمقامات، إذ لكل مقام مقال، فما يجمل في موطن قد يقبح في موطن آخر، وما يجب في مقام قد يمتنع في مقام آخر.

ومن السابقين في حلبة هذا الاستنباط الخطيب الإسكافي (ت٤١٢هـ) في كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل)، قال مبيناً سر التعبير بالفاء في لفظ (كلوا) من قوله سبحانه في سورة البقرة الآية (٥٨): ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ وعن سر التعبير بالواو لا بالفاء في لفظ (كلوا) من قوله سبحانه في سورة الأعراف الآية

---

(١) مناهل العرفان للزرقاني ج٢ ص١٩٨ وما بعدها.

(١٦١): ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ مع أن القصة واحدة، ومدلول الحرف واحد. قال:

(الأصل أن كل فعل عطف عليه ما تعلق به تعلق الجواب بالابتداء. وكان الأول مع الثاني بمعنى الشرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثاني على الأول بالفاء دون الواو، ومنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا﴾ فإن وجود الأكل متعلق بالدخول، والدخول موصل إلى الأكل، فالأكل وجوده معلّق بوجوده، بخلاف ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا﴾ لأن السكنى مقام مع طول لبث، والأكل لا يختص وجوده بوجوده، لأن مَن يدخل بستاناً قد يأكل منه مجتازاً فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجواب بالابتداء وجب العطف بالواو دون الفاء[1].

❊ ❊ ❊

خصائص أسلوب القرآن الكريم

الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن الكريم جعلت له طابعاً معجزاً في لغته وبلاغته، ومن تلك الخصائص:

الخاصة الأولى:

مسحة القرآن اللفظية الخلابة العجيبة، المتجلية في نظامه الصوتي وجماله اللغوي. والمراد بنظام القرآن الصوتي: اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومدّاته وغنّاته، واتصالاته وسكتاته، اتساقاً عجيباً، وائتلافاً رائعاً.

فمَن ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية يشعر ولو كان أعجمياً لا يعرف العربية بأنه أمام لحن غريب، وتوقيع عجيب، يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر، لأن الموسيقى تتقارب أنغامها، فلا يفتأ السمع أن يملها، ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان وتتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالباً على نمط يورث سامعه الملل والسأم.

أما سامع لحن القرآن فلا يسأم ولا يمل، لأنه ينتقل فيه دائماً بين ألحان متنوعة، وأنغام متجددة على أوضاع مختلفة، يهز كل وضع منها أوتار القلوب.

وهذا الجمال الصوتي هو أول شيء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن ولم

---

(١) انظر درة التنزيل وغرة التأويل ص١٠ وفيه النص كامل مع زيادة.